مركز شؤون المرأة - غزة
Women's Affairs Center - Gaza

أصعب شيء أن تستيقظ يومًا فلا ترى النور، ولا تلمح وجه أمك أو ابتسامتها، كنت أرى من قبل، ثم فجأة لم أعد أرى وكأن حياتي انطفأت...

"أنا لا أخاف من الموت، لكن أخاف من هذه الحياة هكذا. أخاف أن أستيقظ كل يوم ولا أجد شيئًا أتمسك به، وأخاف أن ينطفئ صوتي، فهو كل حياتي."شيماء اليوم امرأة تعيش على الأطلال، لكنها لا تزال تحمل أحلامها.

أحلام معلقة في زمن الحرب

كانت حياة شيماء البالغة من العمر (38 عامًا)، من حي الزيتون جنوب غزة، مليئة بالحروب والنزوح والخسارات المتلاحقة. فقدت بصرها إثر صدمة تعرضت لها خلال العدوان الإسرائيلي على غزة (2008-2009)، كما دُمّر بيتها بالكامل ثلاث مرات، كان آخرها خلال حرب الإبادة الجماعية في قطاع غزة. نزحت شيماء مع عائلتها منذ بداية الحرب في السابع من أكتوبر 2023، إلى دير البلح وسط القطاع، لتبدأ صفحة جديدة من المعاناة وسط الدمار والفقدان.

بدأت قصتها مع الألم خلال العدوان الإسرائيلي (2008-2009)، حين أصيبت بصدمة شديدة نتيجة الخوف والتوتر المستمر. أسابيع من الصداع والألم لم تهدأ، حتى انتهى الأمر بفقدانها البصر بشكل كامل، لتصبح حياتها منذ ذلك اليوم مواجهة دائمة للتحديات وسط صعوبة الحركة والاعتماد على الآخرين في أبسط الأمور.

تقول شيماء : "كنت في السنة الثالثة لتخصص الآداب الإنجليزي، وفجأة انقطعت أحلامي كلها. تأخر التشخيص كثيرًا بسبب العدوان على غزة، وعندما وصل وفد طبي أجنبي لتقديم المساعدة، كان الأوان قد فات، ففقدت بصري إلى الأبد".

تضيف شيماء بحزم وأسى : "أصعب شيء أن تستيقظ يومًا فلا ترى النور، ولا تلمح وجه أمك أو ابتسامتها. كنت أرى من قبل، ثم فجأة لم أعد أرى وكأن حياتي انطفأت".

دخلت شيماء في نفق مظلم دام أربع سنوات من العلاج النفسي المكثف، دون جدوى. كانت ترفض في تلك الفترة الاعتراف بأنها فقدت البصر، وامتنعت عن كل شيء في حياتها مثل الخروج، والدراسة، والتواصل مع الناس. ومع مرور السنوات، بدأت تدريجيًا تجربة النهوض من جديد.

في عام 2012، حاولت شيماء أن تصنع لنفسها طريقًا بديلًا، فسجّلت في إحدى الجامعات بقسم الترجمة الإعلامية، محاولةً إعادة بناء حياتها ومواصلة حلمها في التعليم والعمل رغم التحديات الكبيرة.

وقبل اندلاع حرب أكتوبر 2023م، كانت حياة شيماء قد بدأت تستقر نسبيًا. عملت في مجال الإعلام كصوت إذاعي مميز، حيث قضت ثلاث سنوات كمذيعة في إذاعة فرسان الإرادة الخاصة بذوي الإعاقة بمدينة دير البلح وسط قطاع غزة، وسجلت عشرات الإعلانات التجارية لصالح إذاعات وشركات في غزة وخارج فلسطين.

تتابع قائلة:" كنت أعيش بالنور الذي في قلبي، وكان صوتي عيوني. عندما يقول لي الناس إن صوتي قوي، وإنه يعطي أمًلا، كنت أشعر حينها أنني ما زلت أعيش".

استطردت شيماء حديثها:" سافرت مرة وحيدة، عام 2017، وأمضيت هناك عامين، حيث تعرفت على إحدى الوكالات التركية. بعد عودتي إلى الوطن، بدأت العمل معهم كمراسلة ومحررة من غزة، ولاحقًا عملت أيضًا مع قناة تركية، ومع عدة مشاريع إعلامية أخرى".

لكن الحرب الأخيرة سرقت من شيماء كل ما أعاد إليها معنى الحياة. تقول: "نزحت على عجل مع عائلتي، وكنت أظن أننا سنعود بعد أيام قليلة. حملت حقيبة صغيرة تحتوي على بعض الملابس والأغراض، وتركت خلفي جهاز الحاسوب المحمول، الذي كان نافذتي إلى العالم. كان يحتوي على برنامج ناطق خاص بالمكفوفين، وقد مكّنني من العمل والكتابة والتواصل".

وتضيف بحسرة : "حين أدركت أنني فقدته، شعرت أن حياتي كلها انطفأت من جديد. عندما فقدت الحاسوب، شعرت وكأنني فقدت الدنيا كلها، فقد كان كل حياتي فيه، كل شغلي وأحلامي وأصواتي. واليوم لم يبق عندي شيء".

النزوح أصعب بألف مرة على الشخص الكفيف. ففي بيت شيماء القديم كانت تعرف كل زاوية وكل مكان برائحته وملمسه، ولم تكن بحاجة إلى النظر لتتحرك بسهولة. لكن في الخيمة، وسط الزحام والضوضاء، أصبح كل شيء غريبًا، وكل خطوة محفوفة بالمخاطر. تقول: "في بيتي لم أكن أضيع، وحتى وأنا كلي عمى كنت أعرف مكاني بدقة، لكن في الخيمة شعرت أنني غريبة في هذه الدنيا، ولم أتمكن من الوصول إلى المرحاض إلا بعد أن أصطدم بجسمي بكل شيء أمامي".

اليوم، فقدت شيماء كل خصوصيتها وراحتها وأمانها. خيمة واحدة تجمع جميع أفراد العائلة، ولا مكان فيها لصوتها أو لصمتها. فقدت عملها، وجهازها، والمساحة الصغيرة التي كانت تمنحها شعورًا بالاستقلال. تعيش على المساعدات الإنسانية المحدودة، وتنتظر رحمة الآخرين، ومع ذلك، لا تزال تحاول التمسك بما تبقى من إيمانها وصبرها، مجابهة الصعاب بشجاعة رغم كل الخسارات.

تتابع حديثها قائلة: "أنا لا أخاف من الموت، لكن أخاف من هذه الحياة هكذا. أخاف أن أستيقظ كل يوم ولا أجد شيئًا أتمسك به، وأخاف أن ينطفئ صوتي، فهو كل حياتي".

شيماء اليوم امرأة تعيش على الأطلال، لكنها لا تزال تحمل أحلامها. تحلم بأن تستعيد جهازًا جديدًا يمكنها من العودة للعمل، وتحلم بالعودة إلى الميكروفون لتسجل إعلانًا أو تقرأ نصًا، وتحلم بخيمة صالحة تحميها من قسوة الشتاء وحرارة الصيف .وتهمس في ختام حديثها: "قد لا أرى بعيني، لكن أريد من يراني في وجعي، يراني كإنسانة، لا كظل يعيش في الخيمة".